

الإنصاف والأعتدال عند الحافظ الذهبي



د. هاني فقيه

الإنصاف والاعتدال عند الحافظ الذهبي

(ت:٧٤٨هـ)

د. هاني أحمد فقيه

أستاذ الحديث المشارك بالجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة ١٤٣٦هـ

(أصل هذا الكتاب)

هو ورقة عمل محكمة تقدم بها الباحث للمؤتمر الدولي الثاني للقرآن الكريم والسنة النبوية، الذي أقيم بالجامعة الإسلامية العالمية بكوالالمبور - ماليزيا

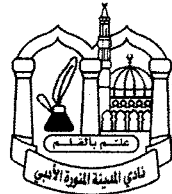
لعام ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

ح نادي المدينة المنورة الأدبي ، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
فقيه ، هاني احمد
الإنصاف الاعتدال عند الحافظ الذهبي / هاني احمد فقيه - المدينة المنورة ، ١٤٣٦هـ
١٠٤ص ، ١٤X٢١ سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٥٧٣-٢-١
١- الذهبي ، محمد بن احمد، ت٧٤٨هـ ٢-الوسطية في الاسلام أ.العنوان
ديوي ٢١١ ١٤٣٦/٣٢٠٣
رقم الإيداع: ١٤٣٦/٣٢٠٣

الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٥٧٣-٢-١



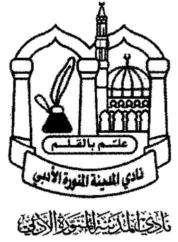
المملكة العربية السعودية ص.ب:750 - المدينة المنورة
هاتف:8471905 014 - فاكس: 8474913 014
البريد الإلكتروني : adabimadina@yahoo.com
الموقع على الأنترنت : www.adabimadina.net

نادي المدينة المنورة الأدبي



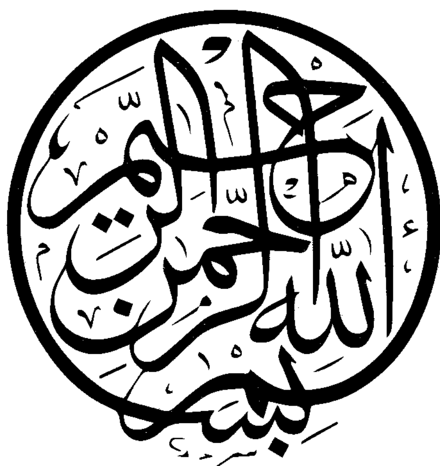
جودي للاعلام والنشر
Jodyy Media and Publishing

السعودية، هاتف: 155 909 559 (966+)
البريد الإلكتروني: jodymediaa@gmail.com
الموقع على الأنترنت: www.jodymediaa.com



الإنصاف والاعتدال عند الحافظ الذهبي

د. هاني فقيه


بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات البحث

الفصل الحادي عشر: تمييزه بين مستويات البدعة.

الفصل الثاني عشر: تقريره بأن العبرة في الرواة الصدق والإتقان وإن تلبسوا ببدعة.

الفصل الثالث عشر: نقده كثرة الخوض في مضائق العقائد ومعضلاتها.

الفصل الرابع عشر: نهيه عن القول بالمسائل الشاذة.

الفصل الخامس عشر: توسطه في مسألة الاجتهاد والتقليد.

الفصل السادس عشر: نقده لعلل وأدواء طلبة العلم.

الفصل السابع عشر: دعوته إلى ترك التحدث بمسائل العلم التي تضرّ العامة.

الفصل الثامن عشر: تحذيره من الغلو في العبادات.

الفصل التاسع عشر: توقيره للنبي ﷺ بين الغلو والجفاء.

الفصل العشرون: توسطه في مسألة الأسماء والصفات.

بين يدي البحث

لعل من أبرز القضايا التي تشغل المجتمعات الإسلامية اليوم، قضية نقد الفكر الديني المتطرف وتفكيك بنيته، بعد أن اكتوت كثيرٌ من أقطاره بنيرانه، وتسبب في مزيد من أزماته واختناقاته داخلياً وخارجياً على مرّ العصور.

إن نقد الفكر الديني المتطرف وإضعافه له أدوات مختلفة ووسائل متنوعة، منها: مواجهته بما يقابله من الفكر الوسطي المعتدل لدى كبار علماء الأمة وأعلامها، ممن يحظون باحترام وثقة بين المسلمين.

وقد رأيت أن أسلط الضوء في بحثي هذا على أحد أبرز هؤلاء الأعلام ممن عرفوا بقصدهم واعتدالهم ووسطيتهم وسعيهم للمّ الشمل والتماس الأعذار ونقدهم لكثير من أفكار الغلو والتطرف. هذا العلم هو: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، المتوفى سنة ٧٤٨هـ رحمه الله تعالى.

من الذهبي ولماذا اخترته؟

وربما تساءل البعض: لماذا اخترت الذهبي من بين سائر الأئمة؟

وجواباً عن هذا السؤال أقول: إن منهج الاعتدال والوسطية هو السِّمة الغالبة على علماء الأمة منذ صدر الإسلام وعبر عصوره حتى يومنا هذا إلا من شذ وندر.

وإنما اخترت الذهبي لأسباب ثلاثة:

السبب الأول: يعود إلى أن الذهبي قد ترك لنا في هذا الباب تقعيدات مهمة وتأصيلات قيّمة، تجدر دراستها وإدارة حديث جاد حولها للإفادة منها.

السبب الثاني: أن هذه التأصيلات والتقعيدات صادرةٌ عن إمام كبير، وحافظ ناقد قدير، قد عرف علمه العلماء ودان لمكانته المحدثون والفقهاء، فضلاً عمّا عُرف به من الديانة والورع، فكلامه له وزنه وتأثيره، وإن كنّا لا ندعي العصمة له ولا لغيره من علماء المسلمين.

السبب الثالث: أن الذهبي رحمه الله لم يترك لنا في موضوع الاعتدال والوسطية كتاباً مستقلاً أو فصلاً مفرداً، وإنما هي تعقيبات وتعليقات متفرقة كان يبثها وينثرها في مختلف كتبه كلّما عنّت لها حاجة أو طرأت لها مناسبة.

إن الإمام الحافظ الذهبي لم يكن مجرد مؤرخ ينقل أخبار من تَقَدّم فحسب، بل كان كثيراً ما ينقد ما ينقل ويعقّب ويعلّق على كل ما لا يراه صحيحاً أو مخالفاً للشرع أو العقل أو خارجاً على حدّ الذوق العام أو ما فيه مجازفة ظاهرة، فضلاً عن نقده للكثير من الكتب والمصادر التي يطالعها وينقل عنها.

ولعل هذه الخصلة هي أهم ما تتجلى فيه قيمة كتب الحافظ الذهبي، أعني هذه التعليقات والتعقيبات والتصويبات التي كان يبثها بين الحين والآخر، وإلا فإن ما يذكره من معلومات وحوادث قد تكون متاحة في بقية كتب التراجم والتاريخ الأخرى.

ولأجل هذه الأسباب كلها جاءت هذه المحاولة المتواضعة في جمع ما تفرق من كلام الذهبي ولم شتاته

وتبويبه وتوثيقه فيما يخص موضوع الإنصاف والاعتدال، وإن كنت لا أزعم الاستيعاب والتقصي، وقد تكون فاتتني بعض المواضع مما هو من طبع البشر .

الذهبي في سطور[1]:

ولعله من المفيد قبل أن نبحر مع الإمام الذهبي وأفكاره أن نعرّف به أولاً ولو بشكل مختصر جداً، ونوضّح شيئاً من مكانته العلمية الرفيعة.

وإن شئتم الحق فالتعريف بالذهبي يطول جداً، والكلام عن علمه وفضله قد يكون له بداية وليس له نهاية. وباختصار أقول: الذهبي هو:

١ـ الإمام الحافظ الناقد المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي الدمشقي الشافعي.

٢ـ كان مولده في مدينة دمشق سنة: **٦٧٣**هـ، وعلى ترابها نشأ وترعرع وطلب العلم.

٣ـ طوَّف الإمام الذهبي في مختلف البلدان والأقطار، والتقى بأكثر شيوخ العالم الإسلامي في وقته وأخذ عنهم، وقد عرّف

(١) ترجم للذهبي كل من عاصره أو جاء بعده من أصحاب التراجم والسير، وقد أفرد ترجمته في كتب مستقلة غير واحد من الباحثين المعاصرين، ولعل من أجمعها، كتاب: الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام، للدكتور بشار عواد معروف، وكتاب: الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام، لعبد الستار الشيخ.

بشيوخه هؤلاء في مؤلف ضخم مطبوع في مجلدين كبيرين، سماه: «معجم الشيوخ»، وله كتاب آخر اقتصر فيه على شيوخه في الحديث، سماه: «المعجم المختص بالمحدثين».

٤ ـ بَرَع الإمام الذهبي في العديد من العلوم، وتقلّد مناصب علمية رفيعة، وانصبّ اهتمامه الأكبر على فنون الحديث والتاريخ ونقد الرواة، وحول هذه الموضوعات الثلاثة أخرج أروع كتبه ومؤلفاته.

٥ ـ تجاوزت مؤلفات الذهبي الثلاثمائة مؤلَّف، ما بين مطول ومختصر ومتوسط الحجم، ومن أشهر مؤلفاته: مدونته الكبرى: «تاريخ الإسلام»، التي تجاوزت الخمسين مجلداً، وكتابه «سير أعلام النبلاء»، الذي طبع في خمس وعشرين مجلداً ضخماً، و«تذكرة الحفاظ»، و«ميزان الاعتدال في نقد الرجال» وغيرها من المؤلفات.

٦ ـ تبوأ الذهبي منزلة رفيعة في علم الحديث والتاريخ، ويكفي أن الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (**٨٥٢هـ**)، صاحب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، وهو من هو في العلم والحفظ والمعرفة، ذكر

أنه شرب من ماء زمزم سائلاً الله عز وجل أن ينال مرتبة الذهبي وبراعته في الرسوخ في العلم(٢).

٧ ـ وقد أثنى على الذهبي وأشاد بعلمه وفضله كلٌّ من عاصره أو جاء بعده من أهل العلم والمؤرخين، كعَلَم الدين البرزالي (٧٣٩هـ)، ، وصلاح الدين الصَّفدي (٧٦٤هـ)، والحُسيني (٧٦٥هـ)، وابن السبكي (٧٧١هـ)، وابن كثير (٧٧٤هـ)، وابن ناصر الدين الدمشقي (٨٤٢هـ)، والحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، وبدر الدين العيني (٨٥٥هـ)، والسخاوي (٩٠٢هـ) وجلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، والعلامة الشوكاني (١٢٥٠هـ)، وغيرهم ممن يطول ذكرهم، ولا أرى حاجة لنقل كلامهم طلباً للاختصار والإيجاز(٣).

٨ ـ ومع أن الذهبي عاش في عصر كثر فيه الجمود الفكري والتعصب المذهبي إلا أنه استطاع التخلص من كثير من ذلك بفضل سعة علمه وفطنته وبعد نظره وإنصافه.

---

(٢) نقل ذلك غير واحد، منهم: السيوطي في كتابه: طبقات الحفاظ، ص٥٥٢، والكتاني في: فهرس الفهارس والأثبات ١/ ٣٢٢.

(٣) انظر بعض هذا الثناء في التقدمة التي كتبها العلامة بشار عواد لكتاب: تاريخ الإسلام ١/ ٦٥، وسير أعلام النبلاء ١/ ٦٩ كلاهما للذهبي.

وقد أشار إلى هذه الخصلة الحميدة فيه تلميذُه المؤرخ الناقد صلاح الدين الصَّفدي (ت٧٦٤هـ) عندما قال عنه: «لم أجد عنده جمود المحدثين ولا كودنة[٤] النقلة، بل هو فقيه النظر، له دُربة بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات»[٥].

(٤) الكودنة: البطء والثقل كما في المعجم الوسيط، ٢/ ٧٨٠ مادة « كدن».
(٥) الوافي بالوفيات للصفدي، ٢/ ١٦٣. وينظر أيضاً شعيب الأرنؤوط وآخرين، مقدمة سير أعلام النبلاء، ١/ ٥٣.

منهجي في البحث وصعوباته والدراسات السابقة:

وأما عن منهجي في البحث: فقد قمت بجمع ما وقفتُ عليه من كلام الحافظ الذهبي مما يخصّ موضوع الكتاب فحسب[٦]، ثم صنّفت كلامه ووثّقته وبوّبته ووضعت له ما يناسبه من عناوين جانبية.

ولم أر داعياً لإطالة البحث أو إثقال حواشيه بشرح كلام الذهبي أو نقل ما يشهد له من النصوص أو من كلام الأئمة إلا في القليل النادر. فكلام الذهبي واضح جداً، ولو فتحت باب الشرح والتعليق لطالت ذيول البحث وتشعبت فصوله وخرج عن مقصوده.

أيضاً قد يكرر الذهبي بعض الآراء والأفكار في مواطن عدة من كتبه بحسب الحاجة والمناسبة، وفي هذه الحال قد أكتفي ببعض الشواهد من كلامه، وأترك الأخرى خشية الإطالة.

(٦) للذهبي تعليقات وتعقيبات كثيرة، منها ما يتعلق بمسائل علمية كالحكم على الرواة ونقد المرويات، أو إبداء رأي في مسألة فقهية أو عقدية أو حديثية، أو تعليقات تتعلق ببعض الآداب ونحوها، لكنني لم أقيّد هنا إلا ما يختص بموضوع الإنصاف.

وعلم الله أني قد اضطررت في سبيل جمع هذه المادة إلى مطالعة وجرد معظم كتب الذهبي الكبار، من أمثال مدونته الكبرى: تاريخ الإسلام بمجلداتها التي زادت على الخمسين مجلداً، وكتابه العظيم: سِيَر أعلام النبلاء، وكتابه ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ومعجم الشيوخ الكبير، والمعجم المختص بالمحدثين، والعِبَر في أخبار من غَبَر، وتذكرة الحفاظ، وبيان زَغَل العلم.

هذه أهم كتب الذهبي، وقد تكون له تعليقات في ثنايا كتبه الأخرى، لكني أتصور ندرتها فتركتها، والله أعلم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الباحثين كان قد سبقني في جمع شيء من كلام الذهبي وتعليقاته، لكني وجدتها كتباً عامة جمعت من كلام الذهبي وآراءه قضايا متنوعة، تتعلق بالآداب والسلوك وضرورة لزوم سنة النبي ﷺ ومحبته وتعظيم العلماء، أو كلاماً يتعلق بتحقيق مسائل في السيرة أو التاريخ أو العقيدة أو الفقه، فضلاً عن كونها لم تستقرء كتب الذهبي وقد فاتها الشيء الكثير.

هذا وقد كنت عزمت على تسمية كتابي هذا بالوسيطة في

فكر الحافظ الذهبي، لكنني عدلت إلى تسميته بـ«الإنصاف والاعتدال عند الحافظ الذهبي» لأني رأيت الذهبي نفسه قد استعمل هذه العبارة عندما ذكر اختلاف بعض الناس في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بين غال في حبِّه أو مفرط في بغضه، فقال الذهبي رحمه الله معلقاً: ((فبالله كيف يكون حال من نشأ في إِقليم، لا يكاد يُشاهد فيه إلاَّ غالياً في الحبِّ، مفرطاً في البغض، ومن أين يقع له الإِنصاف والاعتدال ؟ فنحمد الله على العافية...))[7].

ولعلي أختم هذه المقدمة بما ختم به الحافظ الذهبي مقدمة كتابه تاريخ الإسلام عندما قال: ((**وأنا أرغبُ إلى الله تعالى، وابتهلُ إليه أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يغفر لجامِعه وسامِعه ومطالِعه وللمسلمين، آمين**))[8].

(٧) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٢٨.
(٨) تاريخ الإسلام ١/ ١٠.

الفصل الأول
إنصافه في تراجمه

لعل من أبرز السمات التي لا تخطئها العين في منهج الإمام الذهبي وفي مسيرته العلمية إنصافه الشديد لكل من ترجم له أو كتب عنه من الأعلام والمشاهير حتى وإن كانوا يختلفون معه في المذهب أو المعتقد.

إن كل من يطالع تراجم الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء أو تاريخ الإسلام أو تذكرة الحفاظ أو ميزان الاعتدال أو غيرها تجده لا يفرق في النقد بين علماء المذاهب وأرباب الطوائف وبيان ما لهم وما عليهم، سواء كانوا ممن يتفقون معه أو يختلفون.

فالذهبي ينقل عادة آراء الموافقين والمخالفين في العَلَمِ المترجَم، حتى يقدم صورة متكاملة عنه من كل جانب.

بينما نجد كثيراً من الكتاب والمؤرخين قديماً وحديثاً يتأثرون بمذاهبهم ومشاربهم واختلاف توجهاتهم وأمزجتهم عند الحديث عن غيرهم، فيقتصرون إما على التبجيل والمدح

أو على الذم والقدح، بحسب قرب المترجَم أو بعده عن مذاهبهم ومعتقداتهم وقناعاتهم الشخصية.

وشواهد الإنصاف كثيرة في كتب الذهبي، اكتفي منها بثلاثة طلباً للاختصار.

الشاهد الأول: موقفه من الإمام أبي حامد الغزالي (ت: **٥٠٥** هـ)، صاحب كتاب إحياء علوم الدين، وأحد أبرز منظري الصوفية وزعماء الأشاعرة.

لقد انتقد الإمام الذهبي أبا حامد الغزالي كثيراً وأبدى جملة من الملحوظات عليه، خاصة في باب التصوف واستدلاله بالأحاديث الضعيفة والموضوعة في كتبه دون علم له بذلك، لكن ولأن الغزالي له جهود كبيرة في نشر علوم الشريعة، والتصدي لكثير من الفرق الضالة والمنحرفة كالباطنية والفلاسفة فقد أنصفه الذهبي وعرف له فضله وقدره وصدّر ترجمته بقوله في السير: ((**الشيخ الإمام البحر، حجّة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الشافعي الغزالي صاحب التصانيف والذكاء المفرط**))[٩].

(٩) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٣.

وقال منصفاً كتابه الإحياء: ((**وأما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير، لو لا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية، نسأل الله علماً نافعاً**))[١٠].

وقال أيضاً مدافعاً عن الغزالي: ((**الغَزالي إمام كبير، وما من شَرط العالم أنهُ لا يخطئ**))[١١].

وقد ختم ترجمته بقوله: ((**فرحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله، ولكن لا ندَّعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول**))[12].

وقد عدَّه من العلماء المجددين في القرن الخامس[١٣].

وما من شك أن موقف الذهبي هذا يعد غاية في الوسطية والاعتدال حيث لم يمنعه نقده للإمام الغزالي في بعض المسائل الشرعية من إنصافه والإقرار بعلمه وفضله، مع تصريحه بأن العالِم في المنظور الإسلامي ليس من شرطه أنه لا يخطئ ألبتة، فليس في الإسلام كهنة ولا أئمة معصومون، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويرد إلا

---

(١٠) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٣٩.
(١١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٣٩.
(١٢) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٤٦.
(١٣) تاريخ الإسلام ٢٣/ ١٧٩.

صاحب هذا القبر ﷺ كما يقول الإمام مالك بن أنس[١٤].

الشاهد الثاني: موقف الحافظ الذهبي من الإمام ابن حزم الأندلسي الظاهري (ت: ٤٥٦هـ)، صحاب كتاب المحلّى وغيره.

فقد أثنى الذهبي في كتبه على ابن حزم رحمه الله، ووصفه بالإمامة والحفظ والتدين والتبحر في علوم الدين، مع أنه انتقده في الوقت نفسه بقسوة في مسائل شرعية كثيرة في الأصول والفروع، خاصة في تأثره بعلوم المنطق والفلسفة في باب الاعتقاد، وظاهريته المفرطة في الفقه، ولهجته الحادة في نقد الأئمة.

وقد ترجم الذهبي له في ثمان وعشرين صفحة من القطع الكبير من كتابه سير أعلام النبلاء وختم ترجمته بقوله: ((**ولي أنا ميل إلى أبي محمد - يعني ابن حزم - لمحبته في الحديث الصحيح ومعرفته به، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل والمسائل البشعة في الأصول والفروع، وأقطع بخطئه في غير ما مسألة، ولكن لا أُكفره ولا أُضلله، وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين، وأخضع لفرط ذكائه وسَعَة علومه**))[١٥].

---

(١٤) البداية والنهاية ١٤/ ١٦٩.

(١٥) سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٨٤.

وفي تصوري أن هذا الموقف من الإمام الذهبي يعد غاية الغايات في باب التسامح والاعتدال والوسطية، والنظر إلى المخالِف بعين الإنصاف، والدعوة إلى عدم التهور في تكفير المسلم ورميه بالضلال لأجل زلّة أو اجتهاد خاطئ في مسألة.

الشاهد الثالث: موقفه من كتاب «الشِّفا في التعريف بحقوق المصطفى» للقاضي عياض بن موسى اليحصبي المالكي، (ت: **٥٤٣** هـ)، ففي ترجمته من السير قال:

((تواليفه نفيسة، وأجلها وأشرفها كتاب الشِّفا، لولا ما حشاه بالأحاديث المُفتعلة، عملُ إمام لا نقد له في فنّ الحديث ولا ذوق، والله يثيبه على حسن قصده، وينفع بشفائه وقد فعل))[16].

(١٦) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢١٦.

الفصل الثاني

تحذيره من سفك الدماء

لقد كان الحافظ الذهبي رحمه الله كثيراً ما يشدّد في شأن الدماء والأرواح كلما ترجم لشخص عرف باستهانته بها. والنبي ﷺ صحّ عنه أنه قال: ((لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً))[١٧].

وإن تيسر لك مطالعة كتابه: سير أعلام النبلاء أو مدونته الكبرى: تاريخ الإسلام أو كتابه المختصر: العِبَر بأخبار من غَبَر فسوف تقف على شواهد كثيرة من نقده لكل من تورط في هذا الأمر المريع من أمثال: الحجاج بن يوسف الثقفي (ت: **٩٥**هـ) ، وأبي مسلم الخُراساني (ت: **١٣٧**هـ)، الداعية إلى دولة بني العباس، والحاكم بأمر الله العُبيدي (ت: **٤١١**هـ)، حاكم مصر، والمهدي ابن تومرت (ت: **٥٢٤** هـ)، حاكم بلاد المغرب، وطاغية التتار جنكيز خان (ت: **٦٢٤**هـ)، الذي قال الذهبي: ((**بأن قتل المسلم**

---

(١٧) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب بدون عنوان، ٩/ ٢ حديث رقم (٦٨٦٢).

عنده أهون من قتل البرغوث))[18]!!. وحفيده هو لاكو، الذي قال الذهبي: ((**بأنه سفك دم ألف ألف أو يزيدون**))[19]!!

ـ وقد انتقد الذهبي رحمه الله كثرة الأرواح البريئة التي أزهقت عند قيام دولة بني العبّاس، وقال: ((**فرحنا بمصير الأمر إليهم، ولكن والله ساءنا ما جرى؛ لما جرى من سيول الدِّماء، والسَّبي، والنَّهب، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فالدولة الظالمة مع الأمن وحقن الدماء، ولا دولة عادلة تنتهك دونها المحارم، وأنى لها العدل؟ بَل أتَتْ دَوْلَةٌ أعجمية خراسانيَّة جبَّارة، ما أشبه الليلة بالبارحة**))[20].

ـ وقال في موضع آخر: ((**وفي عصر هذه الطبقة**[21] **تحولت دولة الإسلام من بني أمية إلى بني العباس في عام اثنين وثلاثين ومائة، فجرى بسبب ذلك التحول سيولٌ من الدماء، وذهب تحت السيف عالَمٌ لا يحصيهم إلا الله بخراسان والعراق والجزيرة والشام، وفعلت العساكر الخراسانية الذين هم المسودة كلَّ قبيح، فلا حول ولا قوة إلا بالله**))[22].

ـ ومن اللافت أن الذهبي رحمه الله كان يرى أن الشدة

---

(١٨) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٤٣.
(١٩) تاريخ الإسلام ٤٩/ ١٨٣.
(٢٠) سير أعلام النبلاء ٦/ ٥٨.
(٢١) يقصد طبقة صغار التابعين.
(٢٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٨.

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد تفضي بصاحبها إلى التكفير واستباحة الدماء!!

يقول رحمه الله: ((**ربما آل الأمر بالمعروف بصاحبه إلى الغضب والحدَّة، فيقع في الهجران المحرَّم، وربَّما أفضى إلى التكفير[٢٣] والسَّعي في الدَّم**))[٢٤].

(٢٣) وقع في طبعة الرسالة للسير «التفكير»، ووقع في طبعة دار الحديث «التكفير» ولعلها أقرب للسياق.

(٢٤) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤١.

الفصل الثالث

ذمه للخوارج[٢٥]، وتوسطه في الحكم عليهم.

ذمّ الإمام الذهبيُّ الخوارجَ في مواطن كثيرة من كتبه وحمل عليهم بسبب غلوهم في الدين وسفكهم للدماء بالرغم من شدة تدينهم وكثرة عبادتهم لكن على جهالة.

- يقول رحمه الله: ((**أوقعهم - يعني الخوارج - الغلو في الدين إلى تكفير العصاة بالذنوب، وإلى قتل النساء والرجال، إلا من اعترف لهم بالكفر وجدّد إسلامه**))[٢٦] !!

- وفي موضع آخر يقول: ((**الخوارج كلاب النَّار**[٢٧]**، وَشَرُ**

(٢٥) الخوارج: فرقة من الفرق الإسلامية، خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وخالفوا رأيه وقاتلوه وكفّروه، لهم عقائد زائغة من أشهرها: تكفير مرتكب الكبيرة، واستحلال دماء المسلمين المخالفين لهم وأموالهم بحجّة أنهم مرتدين، وهم فرق شتى، ينظر الملل والنحل للشهرستاني، ص ١٣١، التمهيد لابن عبد البر ٢٣/ ٣٢٢، المغني لابن قدامة ٩/ ١٢، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٥١٦.

(٢٦) سير أعلام النبلاء ٣/ ٦٠٦.

(٢٧) إشارة للحديث الذي أخرجه أحمد في المسند ٣١/ ٤٧٤ ، وابن ماجه في سننه، كتاب الإيمان، باب في ذكر الخوارج، ١/ ٦١ حديث ١٧٣، عن أبي ابن أبي أوفى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « الخوارج كلاب النار »، وصححه الألباني في الجامع الصحيح برقم ٣٣٤٧.

قَتْلَى تَحْتَ أَدِيْمِ السَّمَاءِ[٢٨]، **لأنهم مرقوا من الإسلام، ثم لا ندري مصيرهم إلى ماذا، ولا نحكم عليهم بخلود النار، بل نقف))**[٢٩].

ـ وكذلك قوله: ((**الخوارج كلاب النَّار، قد مرقوا من الدّين، ومع هذا فلا نقطع لهم بخلود النَّار، كما نقطع به لعبَدة الأصنام والصُّلبان**))[٣٠]. وقد وصفهم أيضاً بأنهم أعداء للمسلمين[٣١].

وهذا من إنصاف الذهبي رحمه الله ووسطيته فهو وبالرغم من نقده للخوارج وذمه الشديد لهم وتحذيره منهم إلا أنه لم يقطع بكفرهم ولا بخلودهم في النار، وهذا مذهب أهل السنة، أعني عدم تكفير الخوارج، كما حكاه عنهم الإمام النووي (ت: ٦٧٦ هـ) في شرحه على صحيح مسلم[٣٢]. بل نقل الإمام الخطابي (ت: ٣٨٨هـ) إجماع العلماء على: أن الخوارج على ضلالهم مسلمون وليسوا بكفار[٣٣]

(٢٨) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، ٥/ ٢٢٢ حديث ٣٠٠٠، عن أبي أمامة مرفوعاً، وفيه: «كلاب النار شرُّ قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه»، حسنه الترمذي في الموضع المذكور، وقال الألباني: حسن صحيح، كما في صحيح سنن الترمذي، برقم ٣٠٠٠.

(٢٩) سير أعلام النبلاء ١/ ٦٣.

(٣٠) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٢٨.

(٣١) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٧٣.

(٣٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٧/ ١٦٠-١٦٥.

(٣٣) نقله عنه المناوي في فيض القدير ٣/ ٥٠٩.

الفصل الرابع

تحذيره من المسارعة إلى التكفير بغير برهان قطعي

ففي ترجمة الفيلسوف المتصوّف الحسين بن منصور الحلاج (ت: ٣٠٩ هـ) يقول الذهبي: ((**فما ينبغي لك يا فقيه أن تبدر إلى تكفير المسلم إلا ببرهان قطعي، كما لا يسوغ لك أن تعتقد العرفان والولاية فيمن قد تبرهن زغله، وانهتك باطنه وزندقته، فلا هذا ولا هذا، بل العدل أن من رآه المسلمون صالحاً محسناً، فهو كذلك، لأنهم شهداء الله في أرضه، إذ الأمة لا تجتمع على ضلالة، وأن من رآه المسلمون فاجراً أو منافقاً أو مبطلا، فهو كذلك، وأن من كان طائفة من الأمة تضلّله، وطائفة من الأمة تثني عليه وتبجّله، وطائفة ثالثة تقف فيه وتتورّع من الحطّ عليه، فهو ممن ينبغي أن يعرض عنه، وأن يفوَّض أمره إلى الله، وأن يستغفر له في الجملة؛ لأن إسلامه أصلي بيقين، وضلاله مشكوك فيه، فبهذا تستريح، ويصفو قلبك من الغِّل للمؤمنين**))(٣٤).

وكلام الذهبي هذا يمكن أن نخلص منه إلى قواعد مهمة، منها:

---

(٣٤) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٤٣.

١ـ عدم رمي المسلم بالكفر بغير برهان قطعي صريح.

٢ـ عدم ادعاء الولاية لمن تأكد ضلاله وتبرهنت زندقته وانحرافه عن الشريعة ونصوصها البينة.

٣ـ أن من عُرف عند جماهير الأمة بالخير والصلاح والاستقامة فهو صالح خيّر مستقيم إن شاء الله، لأن الأمة شهداء الله في أرضه.

٤ـ أن من عُرف بفجوره واشتهر بانحرافه، فهو كذلك بحسب الظاهر، وإن كنا لا نقطع له في باطن الأمر، كما قال الإمام أبو جعفر الطحاوي (ت: ٣٢١ هـ): ((نرجوا للمحسن ونخاف على المسيء))[٣٥].

٥ـ أن من اختلف فيه علماء الأمة ما بين مادح وقادح، ومعدل ومجرّح، فهذا ممن ينبغي الحذر في الحكم عليه. والأسلم تفويض أمره إلى الله، والاستغفار له في الجملة، لأن إسلامه ثابتٌ بيقين، وكفره مشكوك فيه، وبهذا كما يقول الذهبي: يصفوا قلب المسلم من الغلّ للمسلمين.

---

(٣٥) ينظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ٢/ ٥٣٨.

الفصل الخامس

تحذيره من التكفير بسبب الاختلاف في فروع العقائد
وهذا كثير في كلام الذهبي رحمه الله.

من ذلك ما نقله في ترجمة أبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ) رحمه الله، عن أزهر بن أحمد السرخسي، أنه قال: (**لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد، دعاني فأتيته، فقال: اشهد عليّ أني لا أُكفِّر أحداً من أهل القبلة، لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات**).

وقد علَّق الذهبي على كلام الأشعري فقال: ((**وبنحو هذا أدين، وكذا شيخنا ابن تيمية في أواخر أيامه، يقول: أنا لا أكفر أحداً من الأمة، ويقول: لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن، فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم**)) (٣٦).

---

(٣٦) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٨٨.

الفصل السادس

تحذيره من التبديع لأجل زلّة
أو هفوة، وأن العبرة بكثرة الفضائل

ويبدو أن هذه المسألة كانت تشغل الذهبي كثيراً، ربما لكثرة ما كان يرى من النزاع الذي كان يقع بين أصحاب المذاهب المختلفة والذي كان يصل إلى حد التهاجر والفجور في الخصومة وهضم حق الآخرين، فكرر الدعوة في مؤلفاته إلى ضرورة التحلي بالإنصاف والاعتدال مع العلماء، وعدم الحطّ عليهم لأجل بعض الهفوات أو الهنّات، وقرَّر أن العبرة بكثرة المحاسن.

وأنا أنقل إليكم بعض ما قاله الذهبي في ذلك:

أولاً: قوله: ((**لو أننا أهدرنا كل عالم زلّ، لما سلم معنا إلا القليل، فلا تحطّ يا أخي على العلماء مطلقاً، ولا تبالغ في تقريظهم مطلقاً، واسأل الله أن يتوفاك على التوحيد**))(٣٧).

ثانياً: قوله: ((**لو أننا كلما أخطأ إمام مجتهد في مسألة خطأ مغفوراً له هجرناه وبدّعناه، لما سلم أحدٌ من الأئمة، والله الهادي للحق،**

(٣٧) تاريخ الإسلام ٣٠/ ٢٥٦.

والراحم للخلق))[٣٨].

ثالثاً: قوله: ((**لو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفوراً له، قمنا عليه، وبدّعناه، وهجرناه، لما سَلِم معنا لا ابن نصر، ولا ابن مندة، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة))**[٣٩].

رابعاً: قوله في ترجمة الحافظ محمد بن إسحاق بن خُزيمة، (ت: ٣١٧هـ)،: ((**ولو أن كلَّ من أخطأ في اجتهاده - مع صحة إيمانه، وتوخيه لاتباع الحق - أهدرناه، وبدّعناه، لقلَّ من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنّه وكرمه))**[٤٠].

خامساً: قوله في ترجمة الحافظ وكيع بن الجراح الكوفي (ت: ١٩٧هـ)،: ((**كان ملازماً لشرب نبيذ الكوفة الذي يسكر الإكثار منه، فكان متأولاً في شربه، ولو تركه تورعاً، لكان أولى به، فإن من توقى الشُبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه، وقد صح النَّهي والتَّحريم للنَّبيذ المذكور، وليس هذا موضع هذه الأمور، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك، فلا قدوة في خطأ العالم، نعم، ولا يوبخ بما فعله باجتهاد نسأل الله المسامحة))**[٤١].

(٣٨) تاريخ الإسلام ٢٢/ ٢٩٩.
(٣٩) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٠.
(٤٠) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٧٦.
(٤١) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٣.

سادساً: قوله في السِّير: ((نحبّ العالم على ما فيه من الاتباع والصِّفات الحميدة، ولا نحبّ ما ابتدع فيه بتأوِيل سائغ، وإنَّما العبرة بكثرة المحاسن))[٤٢]

سابعاً: قوله في ترجمة أبي بكر الشاشي الشافعي، (ت: ٤١٧ هـ): ((الكمال عزيز، وإنما يُمدح العالم بكثرة ما له من الفضائل، فلا تدفن المحاسن لورطة، ولعله رجع عنها، وقد يُغفر له باستفراغه الوسع في طلب الحق، ولا قوة إلا بالله))[٤٣].

---

(٤٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٥.
(٤٣) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٨٥.

الفصل السابع

دفاعه عن الأئمة والتماسه الأعذار لهم

وشواهد هذا كثيرة في مؤلفات الذهبي، منها على سبيل المثال:

١ـ دفاعه عن الإمام الحافظ الكبير أبي حاتم محمد بن حِبّان البُستي (ت: ٣٥٤ هـ) صاحب كتاب الصحيح في اتهامه بالزندقة.

فقد ذكر الذهبي أن بعض العلماء نقل عن ابن حبان أنه قال: ((النبوة: العلم والعمل)) !!

ثم أنكروا عليه بسبب ذلك وحكموا بزندقته وكتبوا إلى الخليفة بقتله!!

لكن الذهبي دافع عن ابن حبان وقال: ((**هذا له محمل حسن، ولم يُرد حصر المبتدأ في الخبر، ومثله: الحج عرفة، فمعلوم أن الرجل لا يصير حاجاً بمجرد الوقوف بعرفة، وإنما ذكر مهمّ الحج ومهم النبوة، إذ أكمل صفات النبي العلم والعمل، ولا يكون نبياً إلا أن يكون عالماً عاملاً، نعم النبوة موهبة من الله تعالى لمن اصطفاه من**

أولى العلم والعمل، لا حيلة للبشر في اكتسابها أبداً، وبها يتولد العلم النافع والعمل الصالح، ولا ريب أن إطلاق ما نقل عن أبي حاتم لا يسوغ، وذلكَ نفَسٌ فلسفي))[٤٤].

٢ـ دفاعه عن الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، (ت: ٤٧٤هـ)، شارح الموطأ وغيره.

فقد ذكر الذهبي أن بعض علماء بلده كان قد كفّره بسبب قوله: إن النبي ﷺ كتب اسمه بنفسه يوم صلح الحديبية كما جاء في صحيح البخاري[٤٥]، قالوا: إن في هذا تكذيباً للقرآن الكريم الذي أخبر عن نبيه بأنه نبي أميّ.

لكن الذهبي لم يقبل بتكفير هذا الفقيه الجليل، وأطال في الدفاع عنه قائلاً: ((يجوز على النبي ﷺ أن يكتب اسمه ليس إلاّ، ولا يخرج بذلك عن كونه أميّاً، وما من كتب اسمه من الأمراء والولاة إدماناً للعلامة يُعد كاتباً، فالحكم للغالب لا لما ندر، وقد قال عليه السلام: «إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب» أي لأن أكثرهم كذلك، وقد كان فيهم الكتبة قليلاً، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢]، وقوله عليه السلام: « لا نحسب » حق،

(٤٤) تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٢٢.

(٤٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب عمرة القضاء، ٥/ ١٤١، حديث ٤٢٥١.

ومع هذا فكان يعرف السنين والحساب وقسم الفيء وقسمة المواريث بالحساب العربي الفطري، لا بحساب القبط، ولا الجبر والمقابلة، بأبي هو ونفسي ﷺ، وقد كان سيّد الأذكياء، ويبعد في العادة أن الذكي يُملي الوحي وكتب الملوك وغير ذلك على كتّابه، ويرى اسمه الشريف بخاتمه، ولا يعرف هيئة ذلك مع الطول، ولا يخرج بذلك عن أميّته، وبعض العلماء عدّ ما كتبه يوم الحديبية من معجزاته، لكونه لا يعرف الكتابة وكتب، فإن قيل: لا يجوز عليه أن يكتب، فلو كتب لارتاب مبطلٌ، ولقال: كان يُحسن الخط، ونظر في كتب الأولين، قلنا: ما كتب خطاً كثيراً، حتى يرتاب به المبطلون، بل قد يقال: لو قال مع طول مدة كتابة الكتاب بين يديه: لا أعرف أن أكتب اسمي الذي في خاتمي، لارتاب المبطلون أيضاً، ولقالوا: هو غاية في الذكاء فكيف لا يعرف ذلك، بل عرفه وقال: لا أعرف. فكان يكون ارتيابهم أكثر، وأبلغ في إنكاره والله أعلم))[٤٦].

٣ـ دفاعه عن المحدث الثقة حسين المعلّم، (ت: ١٥٠هـ).

فقد نقل الذهبي عن بعض الأئمة تضعيف حسين المعلم بسبب أغلاط وقعت له في رواية بعض الأحاديث، وردّ الذهبي عليهم فقال: ((**الرجل ثقة، وقد احتج به صاحبا**

(٤٦) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٤٠، وينظر أيضاً تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨١.

الصحيحين ... وليس من شرط الثقة أن لا يغلط أبداً، فقد غلط شعبة ومالك، وناهيك بهما ثقة ونبلاً...))[٤٧].

٤ـ وكرر هذا المعنى في ترجمة الإمام الحافظ هشام بن عروة الأسدي، (ت: ١٤٦هـ).

ردّ على من ضعفه بسبب بعض الأخطاء، وقال: **((أرني إماماً من الكبار، سَلِمَ من الخطأ والوهم))**[٤٨].

٥ ـ ومثل ذلك فعل في دفاعه عن الحافظ الكبير عبد الرزاق بن همام الصنعاني، (٢١١هـ).

فقد نقل الذهبي عن الحافظ العباس بن عبد العظيم قوله: ((والله الذي لا إله إلا هو، إن عبد الرزاق كذّاب، والواقدي أصدق منه)) !!

فردّ عليه الذهبي وقال: ((**والله ما برّ عباس في يمينه، ولبئس ما قال، يعمَد إلى شيخ الإسلام، ومحدّث الوقت، ومن احتج به كلُّ أرباب الصحاح، وإن كان له أوهام مغمورة، وغيره أبرع في الحديث منه، فيرميه بالكذب، ويقدِّم عليه الواقدي الذي أجمعت الحفّاظ على تركه، فهو في مقالته هذه خارقٌ للإجماع بيقين**))[٤٩].

---

(٤٧) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٤٦.
(٤٨) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٦.
(٤٩) سير أعلام النبلاء ٩/ ٥٧١.

الفصل الثامن

دعوته إلى وجوب المحافظة على الأخوة برغم الخلاف

وسأذكر شاهدين من كلام الذهبي على هذا:

الشاهد الأول: ما نقله الذهبي في ترجمة الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤هـ) رحمه الله صاحب المذهب، عن أبي موسى الصّدفي، أنه قال: (ما رأيت أعقلَ من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في المسألة).

ثم علّق الذهبي قائلاً: (**وهذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقهِ نفسه، فما زال النظراء يختلفون**)[٥٠].

الشاهد الثاني: في ترجمة الحافظ إسحاق بن راهويه الحنظلي، (ت: ٢٣٨هـ).

فقد نقل الذهبي عن الإمام أحمد بن حنبل قوله: (لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً))[٥١].

(٥٠) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢١٦.
(٥١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٧١.

الفصل التاسع

تقريره بأن كلام الأقران[52] يطوى ولا يروى، خاصة إذا ما تبين أنه بسبب حسد أو عداوة

وقد قرر هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتبه:

ـ كقوله: ((**لو سمعنا كلام الأقران، بعضهم في بعض لاتَّسَع الخَرْقُ**))[53].

ـ وقوله: ((**كلام الأقران إذا تبرهن لنا أنه بهوى وعصبية، لا يلتفتُ إليه، بل يطوى ولا يروى**))[54].

ـ وقوله: ((**قد علم أن كثيراً من كلام الأقران بعضهم في بعض مهدر لا عبرة به**))[55].

ـ وقوله في ترجمة الحافظ أبي نُعيم الأصبهاني، (ت: ٤٣٠ هـ)، عندما ذكر كلام الحافظ ابن مندة (ت: ٤٧٥ هـ) فيه بسبب خلاف وقع بينهما في مسألة اللفظ بالقرآن هل هو مخلوق؟

---

(٥٢) المراد بالأقران: العلماء المتعاصرون.
(٥٣) تاريخ الإسلام ٢٧/ ٣٢٤.
(٥٤) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩٢.
(٥٥) سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٠.

قال الذهبي معلقاً: ((كلام ابن مندة في أبي نُعيم فظيع، لا أحبّ حكايته، ولا أقبل قول كل منهما في الآخر، بل هما عندي مقبولان، لا أعلم لهما ذنباً أكثر من روايتهما الموضوعات ساكتين عنها)).... إلى أن قال: ((كلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعبأ به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمتُ أن عصراً من الأعصار سلِم أهلُه من ذلك، سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئتُ لسردتُ من ذلك كراريس، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم))[٥٦].

(٥٦) ميزان الاعتدال ١/ ١١١.

الفصل العاشر
دعوته ترك الإغراق في صراعات التاريخ

يقول رحمه الله: ((قد تكلّم خلقٌ من التابعين بعضهم في بعض، وتحاربوا، وجرت بينهم أمورٌ لا يمكن شرحُها، فلا فائدة في بثّها، ووقع في كتب التواريخ وكتب الجرح والتعديل أمور عجيبة، والعاقل خصمُ نفسه، ومن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))[٥٧].

ـ وعندما أشار الذهبي رحمه الله إلى ما حصل بين بعض الصحابة رضي الله عنهم من خلاف وحروب، قال: ((سبيلُنا أن نستغفر للكل، ونحبهم، ونكفّ عما شجر بينهم))[٥٨].

ـ وقال أيضاً: ((تقرر الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين))[٥٩].

وهذا من فقه هذا الإمام ودقيق نظره، فمعظم صراعات المسلمين اليوم ومخاصماتهم تدور حول حوادث

(٥٧) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩٣.
(٥٨) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٦٩.
(٥٩) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩٢.

تاريخية غابرة قد تجاوزها الدهر منذ زمن سحيق، ولم يعد لوجودها داع أو مبرر، إلا اتخاذها ذريعة لتأجيج نار العداوات وتجديد الخصومات بين المسلمين بسوء فهم أو سوء نية.

الفصل الحادي عشر
تمييزه بين مستويات البدعة، وتفرقته بين الغلاة وغيرهم

من إنصاف الذهبي رحمه الله واعتدال فكره أنه كان كثيراً ما يفرّق في الحكم بين الغلاة وغيرهم من شتى أرباب الطوائف والمذاهب، وهذا له صور وشواهد كثيرة منها:

*** تفرقته بين غلاة الصوفية ومعتدليهم.**

فالذهبي رحمه الله لا يضع الصوفية كلهم في سلّة واحدة، بل كان يفرّق بين من تمسكوا منهم بالكتاب والسنّة، والتزموا بأحكام الشريعة(٦٠)، وبين المخلّطين منهم، من أصحاب الشعوذة والترهات والشطحات والخرافات. فهو يشيد بالطائفة الأولى ويذبُّ عنها، بينما يشتد بنقده وتقريعه على الطائفة الثانية ويحطُّ عليها.

والشواهد كثيرة من كلام الذهبي في ذلك، اكتفي هنا بما قاله في ترجمة الإمام المحدِّث أبي سعيد بن الأعرابي،

(٦٠) إذا كان الأمر كذلك فالأولى أن يسمى زهداً بدلًا من كلمة التصوف التي أحدثت حولها جدلاً كبيراً.

واسمه أحمد بن محمد البصري، نزيل مكة، (ت: ٣٤٠ هـ).

قال الذهبي منتقداً بعض مصطلحات الصوفية الغامضة التي لا طائل منها: ((إي والله، دققوا وعمقوا، وخاضوا في أسرار عظيمة، ما معهم على دعواهم فيها سوى ظن وخيال، ولا وجود لتلك الأحوال من الفناء والمحو والصَّحو والسّكر إلا مجرد خطرات ووساوس، ما تفوّه بعباراتهم صدِّيق، ولا صاحب، ولا إمام من التَّابعين. فإن طالبتهم بدعاويهم مقتوك، وقالوا: محجوب، وإن سلَّمت لهم قيادك تخبَّط ما معك من الإيمان، وهبط بك الحال على الحيرة والمحال، ورمقتَ العُباد بعين المقت، وأهل القرآن والحديث بعين البُعد، وقلتَ: مساكين محجوبون. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فإنما التصوُّف والتألُّه والسُّلوك والسَّير والمحبة ما جاء عن أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - من الرضا عن الله، ولزوم تقوى الله، والجهاد في سبيل الله، والتأدب بآداب الشَّريعة من التلاوة بترتيل وتدبر، والقيام بخشية وخشوع، وصوم وقت، وإفطار وقت، وبذل المعروف، وكثرة الإيثار، وتعليم العوام، والتواضع للمؤمنين، والتعزُّز على الكافرين، ومع هذا فالله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. والعالم إذا عَرِي من التَّصوف والتأله، فهو فارغ، كما أن الصوفي إذا

عـري من علم السـنَة، زل عن سـواء السـبيل))[٦١].

موقفه من غلاة الصوفية:

وأما غلاة المتصوفة ومنحرفوهم وأهل الشطحات والترهات منهم، فإليك ما قاله الذهبي عن بعض رؤوسهم الكبار:

١ - الحسين بن منصور الحلاج (ت: ٣٠٩ هـ).

قال الذهبي: ((**كانت لـه بداية جيـدة وتأله وتصوف، ثم انسـلخ من الدين، وتعلم السـحر، وأراهم المخاريق...**))[٦٢].

٢ـ شهاب الدين السهروردي (ت: ٥٨٧ هـ).

قال الذهبي: ((**سـائر كتبه فلسـفة وإلحاد. نسـأل الله السّلامة في الدّين**))[٦٣].

٣ـ عمر بن علي ابن الفارض (ت: ٦٣٢ هـ).

قال الذهبي: ((**شـاعر الوقـت، شـرف الديـن عمر بن علي بن مرشـد الحمـوي، ثـم المصري، صاحـب الاتحاد الذي قد مـلأ به التائيـة... فإن لم يكـن في تلـك القصيدة صريح الاتحاد الـذي لا حيلة في وجوده، فما**

---

(٦١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٣٥.
(٦٢) ميزان الاعتدال ١/ ٥٤٨.
(٦٣) تاريخ الإسلام ٤١/ ٢٨٦، العبر في خبر من غبر ٣/ ٩٦.

في العالم زندقة ولا ضلال، اللَّهم ألهمنا التقوى، وأعذنا من الهوى، فيا أئمة الدِّين ألا تغضبون لله؟! فلا حول ولا قوّة إلا بالله))[٦٤].

٤ـ عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني (ت: ٦٩٠هـ).

قال الذهبي: ((**أحد زنادقة الصوفية**))[٦٥].

٥ـ محي الدين ابن عربي (ت: ٦٣٨هـ).

قال الذهبي: ((**فو الله لإن يعيش المسلم جاهلاً خلف البقر لا يعرف من العلم شيئاً سوى سور من القرآن يصلى بها الصلوات ويؤمن بالله وباليوم الآخر ـ خيرٌ له بكثير من هذا العرفان وهذه الحقائق، ولو قرأ مائة كتاب أو عمل مائة خلوة**))[٦٦].

ـ وقد وصف الذهبي كلام ابن عربي وابن الفارض وأمثالهما بالعسل الذي أذيب فيه السُّم، يستلذه الشخص، فيسرى في بدنه وهو لا يشعر حتى يهلكه[٦٧].

ـ ووصف بعض كلامهم بأنه شرٌّ من الشرك[٦٨]، وأنه محض الكفر والزندقة[٦٩].

---

(٦٤) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٦٨.
(٦٥) العبر في خبر من غبر ٣/ ٣٧٣.
(٦٦) ميزان الاعتدال ٣/ ٦٦٠.
(٦٧) تاريخ الإسلام ٥٠/ ١٩٩.
(٦٨) تاريخ الإسلام ٤٩/ ٢٨٤.
(٦٩) تاريخ الإسلام ٤٧/ ٢٧٩.

ـ وكان لا يرى حاجة إلى فتح باب الاعتذار عن مقالاتهم الصريحة في مخالفة قواطع الإسلام، وكان يقول: ((**إن فتحنا باب الاعتذار عن المقالات، وسلكنا طريقة التّأويلات المستحيلات لم يبق في العالم كُفر ولا ضلال، وبَطَلَت كتب المِلَل والنِّحَل واختلاف الفِرَق**))[٧٠].

*** تفرقته بين غلاة المرجئة ومرجئة الفقهاء.**

كذلك كان الذهبي يفرق بين مرجئة الفقهاء الذين كانوا لا يرون دخول العمل في مسمى الإيمان، وإن كانوا يرون وجوب العمل وفرضيته، فهو يرى أن هذه مقولة خفيفة لا تستدعي تبديع صاحبها أو رميه بالضلالة، لكن الضلال كل الضلال في مذهب غلاة المرجئة الذين كانوا يقولون بأن المعاصي لا تضرّ المرء شيئاً ما دام مقراً بالتوحيد!!

ـ يقول رحمه الله: ((**الإرجاء مذهب لعدّة من جلّة العلماء، لا ينبغي التحامل على قائله**))[٧١]. يقصد إرجاء الفقهاء الذي أوضحنا معناه قبل قليل.

---

(٧٠) تاريخ الإسلام ٤٩/ ٢٨٦.
(٧١) ميزان الاعتدال ٤/ ٩٩.

ـ ويفصّل القول في المسألة في ترجمة فقيه العراق حمَّاد بن أبي سليمان الكوفي، (ت: ١٢٠ هـ)، فيقول: ((**قال معمَرٌ: قلت لحمَّاد: كنت رأساً، وكنت إماماً في أصحابك، فخالفتهم، فصرت تابعاً! قال: إني أن أكون تابعاً في الحقّ، خيرٌ من أن أكون رأساً في الباطل.**

قلتُ[٧٢]: يشير معمر إلى أنه تحول مرجئاً إرجاء الفقهاء، وهو أنهم لا يعدون الصلاة والزكاة من الإيمان، ويقولون: الإيمان إقرارٌ باللِّسان، ويقين في القلب، والنزاع على هذا لفظي ـ إن شاء الله ـ وإنما غلو الإرجاء من قال: لا يضر مع التَّوحيد ترك الفرائض، نسأل الله العافية))[٧٣].

ـ وفي ترجمة الحافظ عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي روّاد (ت: ٢٠٦ هـ)، قال: ((**كان على الإرجاء عددٌ كثير من علماء الأمة، فهلا عُدَّ مذهباً، وهو قولهم: أنا مؤمنٌ حقاً عند الله الساعة، مع اعترافهم بأنَّهم لا يدرون بما يموت عليه المسلم من كفر أو إيمان، وهذه قولة خفيفة، وإنما الصَّعب قول غلاة المرجئة: إن الإيمان هو الاعتقاد بالأفئدة، وإن تارك الصلاة والزكاة، وشارب الخمر، وقاتل الأنفس، والزاني، وجميع هؤلاء، يكونون مؤمنين كاملي الإيمان، ولا يدخلون النار، ولا يعذبون أبداً. فردوا أحاديث الشَّفاعة المتواترة، وجسَّروا كل**

(٧٢) القائل الذهبي.

(٧٣) سير أعلام النبلاء: ٥/ ٢٣٣.

فاسق وقاطع طريق على الموبقات، نعوذ بالله من الخذلان))[٧٤].

*** تفرقته بين غلاة القدرية وغيرهم.**

كان الذهبي رحمه الله كثيراً ما يفرق بين غلاة القدرية الذين كانوا ينفون علم الله عز وجل بالحوادث قبل وقوعها، وبين القدرية الذين اقروا بالعلم لكنهم قالوا بأن الشرّ من خلق العباد وهو قول المعتزلة .

ولا ريب أن كلا المقولتين بدعة في الدين في رأي الذهبي وغيره من علماء السلف، لكن السلف كانوا يشددون كثيراً على غلاة القدرية، وكانوا ايرون أن مقولتهم هذه مقولة كفرية.

وأما الفريق الثاني فمقولتهم بدعة أيضاً، لكنها أخفّ من الأولى، وقد تورط في القول بها بعض كبار الأئمة.

ـ يقول الذهبي رحمه الله: ((**قد لطخ بالقدر جماعة، وحديثهم في ((الصحيحين)) أو أحدهما، لأنهم موصوفون بالصّدق والأمانة**))[٧٥].

ـ ويقول في ترجمة الإمام الحافظ عبد الوارث بن سعيد العنبري، (ت: ١٨٠ هـ): ((**كان عالماً مجوّداً من فصحاء**

(٧٤) سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٣٦.
(٧٥) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢١.

أهـل زمانـه، ومـن أهـل الديـن والـورع، إلا أنـه قـدري مبتـدِع))[76].

- وفي ترجمة الإمام الحافظ قتادة بن دعامة السدوسي (ت: ١١٧هـ) يقول الذهبي: ((**كان يـرى القَـدَر ـ نسـأل الله العفـو. ومـع هـذا، فما توقَّـف أحدٌ في صدقـه، وعدالتـه، وحفظه، ولعـلَّ الله يعـذر أمثالـه ممَّـن تلبَّس ببدعـة يريـد بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبـذل وسـعه، والله حكـمٌ عـدلٌ لطيـفٌ بعبـاده، ولا يسـأل عمَّـا يفعـل. ثـمَّ إنَّ الكبير مـن أئمَّـة العلـم إذا كثـر صوابـه، وعلـم تحريـه للحـق، واتسـع علمـه، وظهـر ذكاؤه، وعـرف صلاحـه وورعه واتِّباعـه، يغفـر لـه زلله، ولا نضلِّلـه ونطرحـه وننسـى محاسـنه. نعـم، ولا نقتـدي بـه في بدعتـه وخطئـه، ونرجو لـه التَّوبة من ذلـك))**[77].

*** نقده للغلاة من كل الطوائف:**

وإن شئتم الحق فقد كان الحافظ الذهبي يمقتُ الغلو والغلاة من أي فئة كانوا، وكان يقول: ((**غـلاة المعتزلـة، وغـلاة الشِّـيعة، وغـلاة الحنابلـة، وغـلاة الأشـاعرة، وغـلاة**

(٧٦) سـير أعـلام النبـلاء ٨/ ٣٠١، وينظـر تاريـخ الإسـلام ٤/ ٦٨٦، وتذكـرة الحفـاظ ١/ ٢٥٧.

(٧٧) سـير أعـلام النبـلاء ٥/ ٢٧١، وينظـر أيضـاً تدريـب الـراوي للسـيوطي ١/ ٣٨٩ حيـث ذكـر جماعـة كبـيرة مـن الـرواة الثقـات والأئمـة الذيـن قالـوا بنفـي القـدر.

المرجئة، وغلاة الجهمية، وغلاة الكرامية قد ماجت بهم الدنيا، وَكثروا، وفيهم أذكياء وعبّاد وعلماء، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التَّوحيد، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع، ونحب السنّة وأهلها، ونحب العالم على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن))[78].

*** تفرقته بين من كُفِّر ببدعة وبين الكافر الأصلي.**

هذا من إنصاف الذهبي واعتداله أنه كان يفرّق بين من كفره بعض العلماء بسبب بدعة قال بها وبين الكافر الأصلي كاليهودي والنصراني، ولا يرى أنهما في المنزلة سواء.

وفي ذلك يقول: ((**من كُفِّر ببدعة وإن جلَّت، ليس هو مثل الكافر الأصلي، ولا اليهودي والمجوسي، أبى الله أن يجعل من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وصام وصلّى وحجّ وزكي، وإن ارتكب العظائم وضلّ وابتدع، كمن عاند الرسول وعبد الوثن ونبذ الشرائع وكفر، ولكن نبرأ إلى الله من البدع وأهلها))**[79].

---

(78) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٥.
(79) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٠٢.

الفصل الثاني عشر

تقريره أن العبرة في الرواة الصدق والإتقان وإن تلبسوا ببدعة

فهو على سبيل المثال يقول عن بعض االرواة الذين قالوا ببدعة نفي القَدَر وأن أفعال الشرّ من خلق العبد نفسه، قال: ((**قد لُطِخَ بالقَدَر جماعة، وحديثهم في «الصَّحيحين» أو أحدهما؛ لأنَّهم موصوفون بالصِّدق والإتقان**))[٨٠].

ـ وأوضح هذا في موضع آخر فقال: ((**جميع تصرفات أئمة الحديث، تؤذن بأن المبتدع إذا لم تبح بدعته خروجه من دائرة الإسلام، ولم تبح دمه، فإن قبول ما رواه سائغ. وهذه المسألة لم تتبرهن لي كما ينبغي، والذي اتَّضح لي منها: أن من دخل في بدعة، ولم يُعد من رؤوسها، ولا أمعن فيها، يقبل حديثه......**))[٨١].

(٨٠) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢١.
(٨١) سير أعلام النبلاء٧/ ١٥٤.

الفصل الثالث عشر

نقده كثرة الخوض في مضائق العقائد ومعضلاتها

لقد كان الحافظ الذهبي يكره كثرة الخوض والجدال في مضائق مسائل الاعتقاد وتفصيلاتها الدقيقة التي شاع البحث فيها، وشغلت وقتاً غير قصير من جهود العلماء وتفكيرهم، وكان يرى أن السكوت عن هذه المسائل أولى وأسلم، خاصة وأنها قد تسببت في كثير من الخصام والقلاقل والفتن بين علماء الأمة.

ولنذكر بعض الشواهد الدالة على ذلك من كلام الذهبي:

الشاهد الأول: مسألة هل الإيمان مخلوق ؟

قال الذهبي: ((**وأما مسألة خلق الإيمان وعدمه، ففيها بحث ليس هذا موضعه، والسكوت أولى وأسلم**))[٨٢].

الشاهد الثاني: مسألة رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج.

(٨٢) تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٠٠.

فقد ذكر الذهبي خلاف العلماء في المسألة، ثم رجّح التوقف فيها، وقال: ((**فإن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، فإثبات ذلك أو نفيه صعب، والوقوف سبيل السلامة، والله أعلم، وإذا ثبت شيء قلنا به، ولا نعنّف من أثبت الرؤية لنبينا في الدنيا، ولا من نفاها، بل نقول: الله ورسولُه أعلم، بلى نعنّف ونبدّع من أنكر الرؤية في الآخرة، إذ رؤية الله في الآخرة ثبتت بنصوص متوفرة**))(٨٣).

الشاهد الثالث: مسألة إثبات الحدّ لله عز وجل.

فعندما ذكر الذهبي اختلاف العلماء في مسألة إثبات الحدّ لله عز وجل، قال: ((**الخوض في ذلك مما لم يأذن به الله، ولا أتى نصٌ بإثبات ذلك ولا بنفيه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، وتعالى الله أن يُحدّ أو يُوصف إلا بما وصف به نفسه أو علّمه رسله بالمعنى الذي أراد بلا مثل ولا كيف،** ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]))(٨٤).

(٨٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١١٤.
(٨٤) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٧.
والمعروف عند أهل السنة: أن «الحدّ» لفظ حادث، لم يرد في الكتاب أو السنة، وليس لنا أن نصف الله بما لم يصف به نفسه، ولا وصفه به رسوله، لا نفياً ولا إثباتاً، هذا بالنسبة للفظ، أما بالنسبة للمعنى، فالواجب أن نستفصل عن المقصود بإثبات الحد لله ؟ فإن كان المقصود أن الله عز وجل متميز عن خلقه، منفصل عنهم، مباين لهم، غير حالّ فيهم، فهذا حق،

- كرر هذا في موضع آخر فقال: ((**لم يأت نص بإثبات الحدّ ولا بنفيه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**))[٨٥].

- وكرره كذلك في موضع ثالث، فقال: ((**الصواب الكفّ عن إطلاق ذلك، إذ لم يأت فيه نصّ، ولو فرضنا أن المعنى صحيح، فليس لنا أن نتفوه بشيء لم يأذن به الله، خوفاً أن يدخل القلب شيء من البدعة، اللهم احفظ علينا إيماننا**))[٨٦].

- وفي موضع رابع قال وهو يعلق على إنكار بعض العلماء على الإمام ابن حبان (ت: **٣٥٤**هـ) إنكاره للحدّ، فقال الذهبي: ((**إنكاره الحدّ وإثباتكم للحدّ نوع من فضول الكلام، والسكوت عن الطرفين أولى، إذ لم يأت نص بنفي ذلك ولا إثباته، والله تعالى ليس كمثله شيء... فمن نزّه الله وسكت سلِم وتابع السلف**))[٨٧].

الشاهد الرابع: مسألة اللفظ بالقرآن.

وهذه المسألة طال نزاع العلماء حولها، هل يصحّ أن يقال

وهو ثابت لله بهذا المعنى، وأما إن كان المقصود: أن العرش محيط بالله عز وجل، ويراد بنفي الحدّ نفي استواء الله على عرشه، فهذا باطل. ينظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ١/ ١٩٠.

(٨٥) تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٢١.

(٨٦) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٨٤.

(٨٧) ميزان الاعتدال ٣/ ٥٠٧

لفظي بالقرآن مخلوق، أو لا يصح، ومع أن الذهبي شرح المسألة مراراً وأوضح وجه الصواب فيها من وجهة نظره[٨٨]، إلا أنه كان يرى الكفّ وترك الخوض في هذا أولى وأنه من حسن الإيمان لما يحويه من اللبس والإيهام، وكان يقرر أن الأمر المقطوع به أن القرآن كلام الله المنزّل غير مخلوق، وهذا يكفي[٨٩].

وكان يقول: ((**في هذه المسألة بحوث طويلة، الكفّ عنها أولى، ولا سيما في هذه الأزمنة المزمنة**))[٩٠].

الشاهد الخامس: عندما ترجم لصديقه ورفيقه في الطلب أبي الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت: **٧٤٢**هـ) صاحب كتاب تهذيب الكمال وغيره، قال: ((**وكان ـ المزيّ ـ يقرر طريقة السلف في السنّة، ويعضد ذلك بمباحث نظرية وقواعد كلامية، وجرى بيننا مجادلات ومعارضات في ذلك تركُها أسلم وأولى**))[٩١].

---

(٨٨) ينظر تاريخ الإسلام ٥/ ١٠٢٧، سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٣٢، ١٢/ ١٧٧.

(٨٩) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٩٠، ٥١٠.

(٩٠) سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٠١.

(٩١) تذكرة الحافظ ٤/ ١٤٩٩.

ما يكفي المؤمن اعتقاده في رأي الذهبي:

وقد لخّص الإمام الذهبي ما يجب على المسلم اعتقاده من مسائل الإيمان، فقال: ((**يكفي المسلمَ في الإيمان أن يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره، والبعث بعد الموت، وأن الله ليس كمثله شيء أصلاً، وأن ما ورد من صفاته المقدسة حق، يمرّ كما جاء، وأن القرآن كلام الله وتنزيله، وأنه غير مخلوق، إلى أمثال ذلك مما أجمعت عليه الأمة، ولا عبرة بمن شذّ منهم، فإن اختلفتِ الأمة في شيء من مشكل أصول دينهم، لزمنا فيه الصمت، وفوضناه إلى الله، وقلنا الله ورسوله أعلم، ووسعنا السكوت**))[٩٢].

(٩٢) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٤٦.

الفصل الرابع عشر

نهيه عن القول بالمسائل الشاذة

وقد قرر الحافظ الذهبي في هذه المسألة قواعد ذهبية، فقال: ((**ينبغي للمسلم أن يستعيذ من الفتن، ولا يشغب بذكر غريب المذاهب لا في الأصول ولا في الفروع، فما رأيت الحركة في ذلك تحصِّل خيراً، بل تثير شراً وعداوة ومقتاً للصُلحاء والعبّاد من الفريقين، فتمسَّك بالسَنة، وألزم الصمت، ولا تخض فيما لا يعنيك، وما أشكل عليك فردَّه إلى الله ورسوله، وقف، وقل: الله ورسوله أعلم**))[٩٣].

وكان من رأي الذهبي: أن الحديث وإن صحّ لا يُعمل به إلا بشروط منها: أن يكون سالماً من العلل القادحة، وألا يعارضه حديث صحيح آخر، وأن يعمل به إمام من أئمة الاجتهاد المعروفين، وألا يكون من الأحاديث التي أجمع أئمة الاجتهاد على ترك العمل بها[٩٤].

وهذا - والله أعلم - لأن الحديث إذا أجمع الأئمة على ترك العمل به فهو إما أن يكون فيه علّة خفيّة تقدح في

---

(٩٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٤١.

(٩٤) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٠٥.

صحته وإن كان ظاهره السلامة منها، أو يكون منسوخاً بنصوص أخرى.

الفصل الخامس عشر

توسطه في مسألة الاجتهاد والتقليد

مسألة الاجتهاد والتقليد وقع فيها خلط وخبط بين كثير من طلبة العلم، وانقسموا فيها بين طرفي نقيض.

فريق حرّم التقليد مطلقاً وأوجب الأخذ المباشر من الكتاب والسنّة، وفتح باب الاجتهاد لكل من هب ودب من صغار طلبة العلم ونكراتهم، حتى قال بعضهم عن الأئمة: نحن رجال وهم رجال !!

وفي مقابل هؤلاء: فريق أوجب التقليد، وحرّم الاجتهاد مطلقاً، وسدّ أبوابه جميعاً، أو جعل له شروطاً تعجيزية لا تتوفر حتى في كبار الأئمة !!

أما الإمام الذهبي فله رأي وسطي في هذه المسألة، فهو يُسيغ النظر في النصوص والأدلة واستنباط الأحكام منها، لكنه يخصّ ذلك بمن تأهل وتبحر في علوم الشريعة، وبلغ رتبة الاجتهاد وامتلك أدواته بشهادة الأئمة له.

ـ ففي ترجمة الإمام مالك (ت: ١٧٩هـ) رحمه الله، إمام دار الهجرة، نقل الذهبي عن بعض الشيوخ قوله: (إن الإمام لمن التزم تقليده، كالنبيّ مع أمّته، لا تحلّ مخالفته) !!

ثم تعقبه الذهبي فقال: ((**قوله لا تحل مخالفته مجرد دعوى، واجتهاد بلا معرفة، بل له مخالفة إمامه إلى إمام آخر، حجّته في تلك المسألة أقوى، لا بل عليه اتباع الدليل فيما تبرهن له**))[٩٥].

ـ وفي ترجمة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود (ت: ٣٢هـ) رضي الله عنه، ينعى الذهبي على المقلدين من العلماء، ويقول: ((**كلُّ إمام يؤخذ من قوله ويُترك إلا إمام المتقين الصادق المصدوق الأمين المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، فيا لله العجب من عالم يقلّد دينه إماماً بعينه في كل ما قال، مع علمه بما يرِد على مذهب إمامه من النصوص النبوية فلا قوة إلا بالله**))[٩٦].

وكان يقول أيضاً: ((**ما يتقيّد بمذهب واحدٍ إلا من هو قاصر في التمكن من العِلم كأكثر علماء زماننا، أو من هو متعصّب**))[٩٧].

ـ لكن الذهبي يضع للاجتهاد شروطاً ولا يفتح بابه للناس جميعاً، ففي ترجمة الإمام ابن حزم الأندلسي

---

(٩٥) سير أعلام النبلاء ٨/ ٩٠.
(٩٦) تذكرة الحافظ ١/ ١٨.
(٩٧) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٩١.

الظاهري، (ت: ٤٥٦هـ)، نقل الذهبي عن ابن حزم قوله: ((أنا أتبع الحق، وأجتهد، ولا أتقيّد بمذهب)).

ثم تعقبه فقال: ((**نعم من بلغ رُتبة الاجتهاد، وشهد له بذلك عدةٌ من الأئمة، لم يسُغ له أن يقلِّد، كما أن الفقيه المبتدئ والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه، لا يسوغ له الاجتهاد أبداً، فكيف يجتهد، وما الذي يقول ؟ وعلام يبني ؟ وكيف يطير ولمّا يريِّش ؟ والقسم الثالث: الفقيه المنتهي اليقظ الفهِم المحدِّث، الذي قد حفظ مختصراً في الفروع، وكتاباً في قواعد الأصول، وقرأ النحو، وشارك في الفضائل، مع حفظه لكتاب الله، وتشاغل بتفسيره، وقوة مناظرته، فهذه رتبة من بلغ الاجتهاد المقيّد، وتأهل للنظر في دلائل الأئمة، فمتى وضح له الحقّ في مسألة وثبت فيها النص وعمل بها أحد الأئمة الأعلام، كأبي حنيفة مثلاً أو كمالك أو الثوري أو الأوزاعي أو الشافعي وأبي عُبيد وأحمد وإسحاق، فليتبع فيها الحقّ، ولا يسلك الرُخص، وليتورع ولا يسعه فيها بعد قيام الحجة عليه تقليدٌ**))[٩٨] ؟!

---

(٩٨) سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٩١.

الفصل السادس عشر
نقده لعلل وأدواء طلبة العلم في زمانه

وقد أفرد الذهبي لذلك رسالة صغيرة ماتعة عنوانها: «بيان زَغَل العلم» ، وبعض المصادر تسميها: «رسالة فيما يُذم ويُعاب في كل طائفة» .

وفي هذه الرسالة فصّل الذهبي القول في كثير من علل طلبة العلم وأدوائهم، خاصة الشرعيين منهم على اختلاف تخصصاتهم، بحكم أنه واحدٌ منهم، عالمٌ بأحوالهم.

ـ فهو يأخذ على كثير من القرّاء إفراطهم في مراعاة قواعد التجويد والتلاوة إلى حد التنطع والمبالغة، كتفخيم الحروف وترقيقها، وتتبع غرائب القراءات الشاذة والتطريب الزائد، ولو كان ذلك على حساب التدبر والخشوع وحضور القلب وإهمال العمل الذي هو لبّ القراءة وثمرتها(٩٩).

---

(٩٩) بيان زغل العلم ص ١٠٢ .

ـ وأما الفقهاء فيأخذ الذهبي على كثير منهم: إهمالهم العناية بالسنّة النبوية، وعدم معرفتهم صحيحها من سقيمها.

كما أخذ على بعضهم تعصّبهم لمذاهبهم، وإن خالفت صريح النصوص، ومعارضة بعضهم النصّ الصحيح بالرأي الفاسد والقياس البعيد.

فضلاً عن انشغال الكثيرين منهم بالجدال والمناظرة وترتيب الأدلة ومداهنة الأمراء وطلب الرئاسة والتكبر بالعِلم، في الوقت الذي يُعرِضون فيه عن ذكر الله وتلاوة القرآن وإخلاص النيَّة وأداء السُّنن وما يرقّق القلوب ويذكر بالآخرة(١٠٠).

ـ وأما أهل الحديث فغالبهم عند الذهبي: (**لا يفهمون، ولا هِمَّة لهم في معرفة معاني الحديث، ولا في التدين به..... إنما همَّتهم في السَّماع على الشيوخ، وتكثير العدد من الأجزاء والرواة، لا يتأدبون بآداب الحديث، ولا يستفيقون من سَكْرة السَّماع....**)(١٠١).

والذهبي لا يقصد بأهل الحديث أئمته الكبار، وإنما يقصد

---

(١٠٠) بيان زغل العلم ص ١١٥.
(١٠١) بيان زغل ص ١٠٥، وينظر أيضاً تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٥.

من اكتفى منهم برواية الأحاديث وكتابتها ونقلها وأهمل التفقه في معانيها وتدبر ما تدل عليه من أحكام وفوائد.

ـ وأما النحاة واللغويون، فيقول عنهم: ((**النحويون لا بأس بهم، وعملهم حسنٌ يُحتاج إليه، لكن النحوي إذا أمعن في العربية، وعري من علم الكتاب والسنة، بقي فارغاً بطالاً لعَباً**))[١٠٢].

وهكذا يمضي الذهبي في رسالته هذه في نقد بقية أرباب العلوم على اختلاف اختصاصاتهم ويبين ما لهم من فضل فيشيد به وما عليهم من مآخذ فينبه عليها، وكل قصده من وراء هذا النقد الارتقاء بتلك العلوم والدفع بها وبأصحابها إلى ما هو أفضل.

---

(١٠٢) بيان زغل العلم ص ١٢٦.

الفصل السابع عشر
دعوته إلى ترك التحدث بالمسائل التي قد تضرّ العامة في دينهم

يقول رحمه الله: ((**ينبغي للمُحدّث ألا يُشهر الأحاديث التي يتشبث بظاهرها أعداء السنن من الجهمية، ..... وأهل الأهواء، والأحاديث التي فيها صفات لم تثبت، فإنك لن تحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم، إلا كان فتنة لبعضهم، فلا تكتم العلم الذي هو علم، ولا تبذله للجهلة الذين يشغبون عليك، أو الذين يفهمون منه ما يضرهم**))[١٠٣].

ـ وقد أوضح الذهبي هذه القضية في موضع آخر فقال تتميماً للكلام السابق: ((**وقد قال علي ﷺ: حدّثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون**[١٠٤]**. وقد صحّ أن أبا هريرة كتم حديثاً كثيراً مما لا يحتاجه المسلم في دينه، وكان يقول: «لو بثثته فيكم**

(١٠٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٧٨.

(١٠٤) أخرجه عنه البخاري في صحيحه، ١/ ١٩٩، كتاب العلم: باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية إلا يفهموا، من طريق أبي الطفيل، عن علي بن أبي طالب.

لقطع هذا البلعوم»[١٠٥]. وليس هذا من باب كتمان العلم في شيء، فإن العلم الواجب يجب بثه ونشره ويجب على الأمة حفظه، والعلم الذي في فضائل الأعمال مما يصح إسناده يتعين نقله ويتأكد نشره، وينبغي للأمة نقله، والعلم المباح لا يجب بثه ولا ينبغي أن يدخل فيه إلا خواص العلماء.

والعلم الذي يحرم تعلمه ونشره: علم الأوائل وإلهيات الفلاسفة وبعض رياضتهم بل أكثره، وعِلم السحر، والسيمياء، والكيمياء، والشعبذة، والحيل، ونشر الأحاديث الموضوعة، وكثير من القصص الباطلة أو المنكرة، وسيرة البطّال المختلقة، وأمثال ذلك، ورسائل إخوان الصفا، وشعر يعرَّض فيه إلى الجناب النبوي، والعلوم الباطلة كثيرة جداً فلتحذر، ومن ابتلي بالنظر فيها للفرجة والمعرفة من الأذكياء فليقلل من ذلك، وليطالعه وحده، وليستغفر الله تعالى، وليلتجئ إلى التوحيد، والدعاء بالعافية في الدين، وكذلك أحاديث كثيرة مكذوبة وردت في الصفات لا يحل بثها إلا التحذير من اعتقادها، وإن أمكن إعدامهما فحسب. اللهم فاحفظ علينا إيماننا، ولا قوة إلا بالله))[١٠٦].

---

(١٠٥) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ١٩١، ١٩٢، كتاب العلم: باب حفظ العلم، من طريق سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: ((حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم)).

(١٠٦) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٠٤.

الفصل الثامن عشر

تحذيره من الغلو في العبادة

كان الذهبي رحمه الله كثيراً ما ينهى عن الغلو في العبادة، لمخالفة ذلك للسنّة أولاً، ولأنه غالباً ما يفضي إلى تضييع عبادات أخرى لا تقلّ أهمية عنها.

ـ وعلى سبيل المثال: عندما نقل بعضُ الرواة عن الإمام الحافظ وكيع ابن الجراح (ت: ١٩٦هـ) أنه كان يصوم الدهر، ويختم القرآن كل ليلة!!

أنكر ذلك الذهبي وقال: ((**قد صحّ نهيُه عليه السلام عن صوم الدَّهر، وصحّ أنه نهى أن يقرأ القرآن في أقلّ من ثلاث، والدِّين يسرٌ، ومتابعة السنّة أولى**))[١٠٧].

ـ وعندما ذكر الذهبي حديث النهي عن قراءة القرآن في أقلّ من ثلاث ليالٍ، علّق قائلاً: ((**أقلُّ مراتب النَّهي أن تكره تلاوة القرآن كلّه في أقلَّ من ثلاثٍ، فما فقُه ولا تدبَّر من تلا في أقلّ من ذلك.**

---

(١٠٧) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٣.

ولو تلا ورتَّل في أسبوع، ولازم ذلك، لكان عملاً فاضلاً، فالدين يسّر، فوالله إنَّ ترتيل سُبع القرآن في تهجُّد قيام اللَّيل مع المحافظة على النوافل الرَّاتبة، والضُّحى، وتحيَّة المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودبر المَكتوبة والسَّحر، مع النَّظر في العلم النافع والاشتغال به مخلصا لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمه، وزجر الفاسق، ونحو ذلك، مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر، وكثرة الدُّعاء والاستغفار، والصَّدقة وصلة الرَّحم، والتَّواضع، والإخلاص في جميع ذلك، لشغلٌ عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء الله المتَّقين، فإن سائر ذلك مطلوب.

فمتى تشاغل العابد بختمة في كلِّ يوم، فقد خالف الحنيفيَّة السَّمحة، ولم ينهض بأكثر ما ذكرناه، ولا تدبَّر ما يتلوه.... إلى أن قال: وكلُّ من لم يزمَّ نفسه في تعبُّده وأوراده بالسنَّة النبويَّة، يندم ويترهَّب ويسوء مزاجه، ويفوته خيرٌ كثيرٌ من متابعة سنَّة نبيِّه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم، وما زال ﷺ معلماً للأمَّة أفضل الأعمال، وآمراً بهجر التَّبتل والرهبانيَّة التي لم يبعث بها، فنهى عن سرد الصَّوم، ونهى عن الوصال، وعن قيام أكثر اللَّيل إلاّ في العشر الأخير، ونهى عن العزبة للمستطيع، ونهى عن ترك اللحم، إلى غير ذلك

مـن الأوامر والنَّواهي. فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور، والعابـد العـالم بالآثـار المحمديَّـة، المتجاوز لها مفضـولٌ مغـرور، وأحبُّ الأعمـال إلى الله ـ تعـالى ـ أدومها وإن قلَّ))[١٠٨].

ـ وقد تحدّث الذهبي في غير ما موضع عن خطر وخطل ما يفعله بعض العبّاد من المبالغة في إيذاء أنفسهم بالجوع والسهر وحرمانها من تناول الأطعمة الطيبة بحجة الزهادة، وأوضح أن ذلك كثيراً ما يفضي إلى اختلال العقل وفتح باب الشك والوسوسة واضطراب الحواس.

يقول رحمه الله: ((**مـن بالغ في الجـوع ـ كما يفعله الرُّهبان ـ ورفض سـائر الدُّنيا ومألوفات النَّفس من الغذاء والنَّوم والأهل، فقد عرَّض نفسـه لبلاءٍ عريـض، وربمـا خُولـط في عقله، وفاتـه بذلـك كثيرٌ من الحنيفيـة السَّـمحة، وقـد جعـل الله لكلِّ شـيء قـدراً. والسَّـعادة في متابعة السُّـنن، فزن الأمور بالعدل، وصم وأفطر، ونَم وقم، وألزم الورع في القـوت، وارض بما قسـم الله لك، واصمت إلا مـن خير))**[١٠٩].

---

(١٠٨) سير أعلام النبلاء ٣/ ٨٤.
(١٠٩) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٧٠. وينظر أيضاً المصدر نفسه ١٢/ ٨٩، ١٤/ ٢٥٦.

الفصل التاسع عشر

توقيره للنبي ﷺ بين الغلو والجفاء

للذهبي كلام نفيس في مسألة وجوب توقير النبي ﷺ في حدود المسموح به شرعاً، فلا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط، يقول رحمه الله: ((**لو روى الشخص حديث: أن النبي ﷺ سُحِرَ، وحاول بذلك تنقصاً كفر وتزندق، وكذا لو روى حديث أنه: سلَّم من اثنتين، وقال: ما درى كم صلى! يقصد بقوله شينه ونحو ذلك كفر، فإن النبي ﷺ قال: إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فالغلو والإطراء منهي عنه، والأدب والتوقير واجب، فإذا اشتبه الإطراء بالتوقير توقف العالم وتورع، وسأل من هو أعلم منه حتى يتبين له الحق، فيقول به، وإلا فالسكوت واسع له، ويكفيه التوقير المنصوص عليه في أحاديث لا تحصى، وكذا يكفيه مجانبة الغلو الذي ارتكبه النصارى في عيسى، ما رضوا له بالنبوة حتى رفعوه إلى الإلهية وإلى الوالدية، وانتهكوا رتبة الربوبية الصمدية، فضلوا وخسروا، فإن إطراء رسول الله ﷺ يؤدي إلى إساءة الأدب على الرب، نسأل الله تعالى أن يعصمنا بالتقوى، وأن يحفظ علينا حبنا للنبي ﷺ كما يرضى**))(١١٠).

(١١٠) ميزان الاعتدال ٢/ ٦٤٩.

الفصل العشرون

توسطه في مسألة الأسماء والصفات

كان الإمام الذهبي رحمه الله في مسألة أسماء الله وصفاته يسير على منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، لا يؤِّول ولا يشبّه، وكان يقول: ((**نعوذ بالله من التشبيه ومن إنكار أحاديث الصِّفات، فما يُنكر الثابت منها من فقُه، وإنما بعد الإيمان بها هنا مقامانِ مذمومان: تأويلها وصرفها عن موضوع الخطاب، فما أوّلها السلف، ولا حرّفوا ألفاظها عن مواضعها، بل آمنوا بها، وأمروها كما جاءت.**

المقام الثاني: المبالغة في إثباتها، وتصوّرها من جنس صفات البشر، وتشكّلها في الذهن، فهذا جهل وضلال، وإنما الصفة تابعة للموصوف، فإذا كان الموصوف عز وجلّ لم نره، ولا أخبرنا أحدٌ أنه عاينه مع قوله لنا في التنزيل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] **فكيف بقي لأذهاننا مجال في إثبات كيفية البارئ، تعالى الله عن ذلك، فكذلك صفاته المقدّسة، نقرّ بها ونعتقد أنها حق، ولا نمثلها أصلاً ولا نشكِّلها**))(١١١).

(١١١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦١٠-٦١١، وينظر أيضاً ١١/ ٣٧٦، ١٩/ ٤٤٩.

- بيد أن الذهبي وبالرغم من ترجيحه طريق السلف الصالح في إثبات الصفات الإلهية دون تشبيه أو تأويل أو تكييف، إلا أنه لم يكن يكفّر أو يبدِّع القائلين بتفويض معاني بعض تلك الصفات أو تأويلها بقصد تعظيم الله عز وجل وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، وكان يرى التماس العذر لهؤلاء.

فقد نقل في ترجمة أبي العباس السراج (ت: **٣١٣**هـ) أنه قال: ((من لم يُقرّ بأن الله تعالى يعجبُ ويضحكُ وينزلُ كل ليلة إلى السماء الدنيا، فيقول: من يسألني فأعطيَه، فهو زنديق كافرٌ، يستتاب، فإن تاب وإلا ضُربت عنقه، ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين))!!

ثم تعقّبه الذهبي وردّ عليه قائلاً: ((**لا يُكفَر، إلا إن علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله، فإن جحد بعد ذلك فهذا معاند، نسأل الله الهدى، وإن اعترف أن هذا حق، ولكن قال: لا أخوض في معانيه، فقد أحسن، وإن آمن وأول ذلك كله أو تأول بعضه فهو طريقة معروفة**))[١١٢].

---

(١١٢) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٩٦-٣٩٧.

ـ وعندما ذكر الخلاف في إثبات كلام الله تعالى حقيقة بحرف وصوت قال: ((**الذي أعتقده ما صحّ به النّص، وهو أنّ الله كلّم موسى تكليما، وسمع موسى كلامَ الله حقيقة بأذنه، وما عدا هذا لا أخوض فيه، ولا أكفّر من خاض فيه مِن الطّرفين**))(١١٣).

ـ وقد وصف الذهبي حال المثبتين للصفات والمؤولين لها فقال: ((**ما قصدهم إلا تعظيم الباري عز وجل من الطرفين، ولكن الأكمل في التعظيم والتنزيه الوقوف مع ألفاظ الكتاب والسنة، وهذا هو مذهب السلف رضي الله عنهم**))(١١٤).

وهذا يدل على أن الذهبي كان يرجح مذهب الإثبات مع نفي التشبيه، لكنه كان يلتمس العذر للمخالفين الذين قصدوا تنزيه الله عز وجل عن مشابهة المخلوقين وإن كانوا قد أخطؤوا الطريق.

ـ وكان الذهبي كثيراً ما يكرر هذه العبارة: ((**نرجو لكل من بذل جهده في طلب الحق أن يُغفر له من هذه الأمة المرحومة**))(١١٥).

---

(١١٣) تاريخ الإسلام ٤٨/ ٢٨٨.
(١١٤) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٦٤.
(١١٥) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٧٢. وينظر المجلد نفسه ص٣٩.

الخاتمة

إذن فقد كان مقصود هذا البحث هو الإسهام في حلّ معضلة الغلو الديني وتفكيك بنيته، بعد أن تسبب في كثير من أزمات الأمة، وكان من أسباب جمودها وتخلفها وتأخرها عن الالتحاق بركب الازدهار والنمو والتفوق.

وتفكيك هذا الفكر كما قدمت له أدوات مختلفة، من هذه الأدوات مواجهته بالفكر الوسطي المعتدل لدى كبار علماء الأمة وأعلامها، ممن يحظون باحترام وثقة وتقدير بين المسلمين.

وقد وقع اختيار البحث على أحد هؤلاء الأئمة الأعلام، وهو الإمام الحافظ الجليل والناقد المؤرخ الكبير شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، أحد أئمة الحديث النبوي وأساطينه وحامل رايته وناشر علومه بشهادة كبار علماء الأمة ممن عاصروه أو جاءوا بعده.

وقد أبرز البحث الكثير من أفكار القصد والاعتدال التي دعا إليها الذهبي ووثقها من كتبه.

وأبرز أيضاً أن الذهبي وبالرغم من قصده واعتداله إلا أنه لم يكن رجلاً متساهلاً في دينه ولا متهاوناً في عقيدته، بل لقد كان عالماً سُنيّاً ربانياً، يجري على قانون السّلف الصالح في التمسك بالكتاب والسنّة والذبّ عنهما والدعوة إليهما، معظماً للحديث وأهله، وكان يقول: ((**لولا الحُفَّاظ الكبار، لخطبت الزنادقة على المنابر**))[116].

وكان يقول أيضاً: ((**إذا رأيت المتكلم يقول: دعنا من الكتاب والسنة، وهات ما دلّ عليه العقل، فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت العارف يقول: دعنا من الكتاب والسنة والعقل، وهات الذوقَ والوجد، فاعلم أنه شرٌ من إبليس، وأنه ذو اتحاد وتلبيس**))[117].

نعم لقد أبرز البحث أن الذهبي كان حازماً وصارماً تجاه الانحرافات الواضحة والبدع الجليّة المصادمة للكتاب والسنّة، ينقد أصحابها ويرد عليهم ويكشف عن مساوئهم، من صوفية غالية، وباطنية بغيضة، ومعطلة ومجسمة وخوارج وفلاسفة وقرامطة ومشعوذين متلاعبين باسم الدين....

(116) سير أعلام النبلاء ١١/ ٨٢.
(117) تاريخ الإسلام ٣/ ١٩٥.

لكنه في الوقت نفسه لم يكن يرى الإسراف في المواقف ولا الشطط في النقد، بل كان يحب المهل والريث، وكان يحب للأمور أن توزن بميزان القسط والعدل الذي أمر الله به في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ [النحل:٩٠]، دون إفراط أو تفريط، أو وكس أو شطط.

وقد لاحظ البحث أيضاً أن معظم المآخذ التي كان يوجهها الحافظ الذهبي لبعض علماء زمانه منذ ثمانمائة عام تقريباً لا تزال باقية حتى اليوم كما هي لم تتغير أو تتحسن كثيراً، الأمر الذي ينذر بخطر، ويدل على أن عجلة الإصلاح الديني عندنا لا تزال تسير في بطء شديد وتعثّر، إن لم تكن متوقفة، برغم حاجة الأمة للإصلاح، وبرغم كثرة الزلازل العنيفة التي أصابتها وهزت كيانها من الداخل والخارج.

فنسأل الله عز وجل معونته وتوفيقه وسداده، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

١ - ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، (مكتبة ابن تيمية، طبعة٢).

٢ - ابن عبد البر، يوسف بن عبد البر المالكي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، (المغرب: وزارة عموم الأوقاف، د. ط، ١٩٦٧م).

٣ - ابن قدامة، عبد الله بن أحمد المقدسي، المغني، (القاهرة: مكتبة القاهرة، د.ط، ١٩٦٨م).

٤ - ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، ١٩٨٨م).

٥ - ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت).

٦ - أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ).

٧ - الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير، (بيروت: المكتب الإسلامي، د.ط، د.ت).
٨ - الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن الترمذي، (بيروت: المكتب الإسلامي، د. ط، **١٩٩١**م).
٩ - المناوي، عبد الرؤوف، فيض القدير بشرح الجامع الصغير، (مصر: المكتبة التجارية، د. ط، **١٣٥٦**هـ).
١٠ - البخاري، محمد بن إسماعيل، الصحيح، تحقيق: مصطفى البُغا، (بيروت: دار ابن كثير، د.ط، **١٩٨٧**م).
١١ - بشار عوّاد معروف، الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، د. ط، **٢٠٠٨**م).
١٢ - الترمذي، محمد بن عيسى، السنن، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، ط٢، **١٩٧٥**م).
١٣ - الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (دار الكتاب العربي، بيروت،) ط ٢، **١٤١٣**هـ، **١٩٩٣**م .
١٤ - الذهبي، محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، تصحيح:

عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت).
١٥ - الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د. ط،١٤١٣هـ).
١٦ - الذهبي، محمد بن أحمد، العِبَر في أخبار من غبر، تحقيق: محمد السعيد زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت).
١٧ - الذهبي، محمد بن أحمد، معجم الشيوخ، تحقيق: د. محمد الحبيب الهيلة، (المملكة العربية السعودية، مكتبة الصديق، ط١، ١٩٨٨م).
١٨ - الذهبي، محمد بن أحمد، المعجم المختص بالمحدثين، تحقيق: د. محمد الحبيب الهيلة، (المملكة العربية السعودية، مكتبة الصديق، ط١، ١٩٨٨م).
١٩ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، طبقات الحفاظ، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ).
٢٠ - الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي

بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، (بيروت: دار أحياء التراث، د.ط، ٢٠٠٠م).
٢١ - عبد الستار الشيخ، الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٩٩٤م).
٢٢ - الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والأثبات، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٢م).
٢٣ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، (مصر: دار الدعوة، د.ط، د.ت).
٢٤ - النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، (بيروت: دار حياء التراث، ط٢، ١٣٩٢هـ).

الفهرس العام